مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة1 المجلد (26) – العدد (01) (جوان، 2025) -ص 13- 30
ISSN 1111-5149 /E. ISSN 2430-2588

التعاقب الحضاري والتركيب المعماري لموقع مسجد سيدي غانم -دراسة تاريخية أثرية-

The Civilizational Succession and Architectural Composition of the Sidi Ghanem Mosque Site – A Historical and Archaeological Study

شيماء معزوز،[1]* مخبر تاريخ تراث ومجتمع، جامعة قسنطينة 2،
cheymaa.mazouz@univ-constantine2.dz, https://orcid.org/0009-0000-2706-0140

تاريخ الاستلام	تاريخ القبول
2024-06-06	2025-05-01

ملخّص

تعد مدينة ميلة من بين المدن التي تمتلك أهمية تاريخية بارزة، ويعود ذلك إلى موقعها الجغرافي المحصن، الذي جعلها تشهد تعاقب العديد من الحضارات، مخلفة إرثا ثقافيا غنيا لا يزال قائما إلى يومنا هذا، ومن أبرز المعالم التي تميزها مسجد سيدي غانم المصنف كأقدم مسجد في الجزائر، وثاني أقدم مسجد في المغرب الإسلامي بعد مسجد عقبة بن نافع في القيروان. يتميز هذا المعلم بأهميته التاريخية والأثرية، فضلا عن خصوصيته المعمارية التي تجعله فريدا بين المعالم الإسلامية الأخرى، وقد خضع المسجد عبر العصور للعديد من التعديلات والإضافات، التي يمكن ملاحظتها من خلال عناصره المعمارية ومواد بنائه. تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على تطور المسجد عبر مختلف الحقب الزمنية، وذلك بالاعتماد على المصادر التاريخية، إلى جانب تحليل مخططه وعناصره المعمارية، والنتائج المستخلصة من الأسبار الأثرية التي أُجريت بداخله، مما يسمح بفهم أعمق لمسيرته التاريخية ودلالاته الحضارية.

الكلمات المفتاحية: ميلة القديمة؛ التعاقبات الحضارية؛ الخصائص المعمارية؛ مسجد سيدي غانم.

Abstract

The city of Mila is one of the historically significant cities, thanks to its fortified geographical location, which has allowed it to witness the succession of numerous civilizations. These civilizations have left behind a rich cultural heritage that remains present to this day. One of its most prominent landmarks is Sidi Ghanem Mosque, classified as the oldest mosque in Algeria and the second oldest in the Maghreb after Uqba ibn Nafi Mosque in Kairouan. This monument stands out for its historical and archaeological importance, in addition to its unique architectural features that set it apart from other Islamic landmarks. Over the centuries, the mosque has undergone numerous modifications and additions, which can be observed through its architectural elements and building materials. This study aims to shed light on the mosque's development across different historical periods, relying on historical sources, as well as analyzing its layout, architectural elements, and findings from archaeological excavations conducted within it. This approach provides a deeper understanding of its historical significance and civilizational value.

Keywords :old Mila; cultural sequences; architectural properties; Sidi Ghanem's Mosque.

* المؤلف المراسل

مقدّمة

عرفت مدينة ميلة القديمة بأنها من أهم المدن العريقة الواقعة بالشرق الجزائري التي تخللتها طوابع معمارية مختلفة، نتيجة تعاقبات حضارية ومعمارية ما أدى الى تعدد أنماط العمارة والعمران بها، كلها عوامل أثرت على تغير نمط العمارة من وقت لآخر خاصة من الناحية الفنية والجمالية والتقنية للبناء.

كما تعتبر هذه المعالم الأثرية مرآة عاكسة للبعد الحضاري والثقافي للشعوب التي مرت بالمنطقة، وللحفاظ على هذا الموروث الثقافي وإيصاله للأجيال القادمة، وجب علينا المحافظة عليه وصيانته من كل عوامل التلف التي باتت تهدده، خصوصا أن المدينة تحتوي على كل أنواع العمائر، منها المنشآت المدنية التي تجسدت في المنازل، والحمامات، والفنادق، والمنشآت العسكرية التي تمثلت في الأسوار، والأبراج، والحصون، والأبواب، وكذلك المنشآت الدينية المجسدة في الزوايا والأضرحة والمساجد.

ونظرا لأهمية هذه الأخيرة (أي المنشآت الدينية) في المدينة، ارتئينا تسليط الضوء على مسجد سيدي غانم الذي يعد أقدم مسجد بني في الجزائر، وقد شيد من طرف الفاتح أبي المهاجر دينار وسمي باسمه، وتميز بعمارته الإسلامية الفريدة من نوعها، سواء من ناحية التخطيط أو مواد البناء، كما يعتبر رمزا للهوية الوطنية، وذلك راجع لأهميته الأثرية والحضارية، إضافة إلى التغيرات والتجديدات التي أضيفت على المسجد.

تكمن أهمية موضوع دراستنا في جوانب عدة أهمها الجانب الحضاري والجانب الأثري، نبدأ بالجانب الأثري الذي يظهر جليا من خلال المخلفات والعناصر المعمارية والإنشائية المكونة للمسجد، أما الجانب الحضاري فيبرز في الحضارات التي تعاقبت على المسجد وموقعه مخلفة بذلك خصائص معمارية لا تزال ظاهرة عليه.

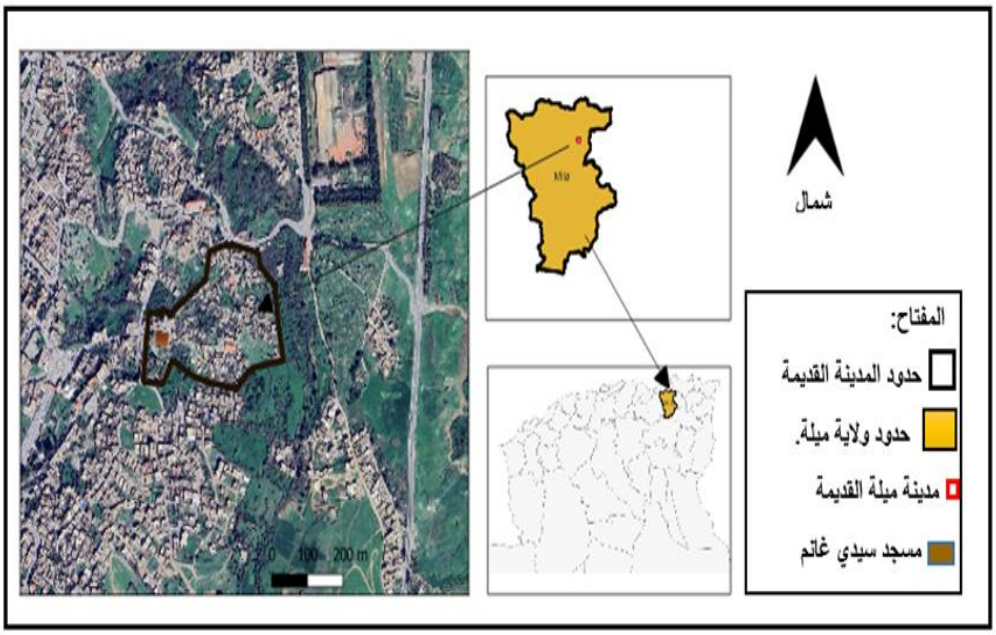
ومن خلال ما تم تقديمه في هذا الموضوع ومحاولتنا للوصول إلى نتائج جديدة تخدم البحث العلمي، إرتئينا بناء هذا البحث على إشكال رئيس تمثل في: تحديد طبيعة التعاقبات الحضارية التي عايشها مسجد سيدي غانم، وبالتالي تحري الخصائص والاستثناءات المعمارية المجسدة على عمارة المسجد.

1- المحطات التاريخية لموقع مسجد سيدي غانم

يقع مسجد سيدي غانم في مدينة ميلة القديمة داخل السور البيزنطي، تحديدا في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة ويعرف هذا المكان اليوم ب "الثكنة". وقد ذكره البكري في كتابه المسالك والممالك: "ولمدينة ميلة باب شرقي يعرف بباب الريوس، (وعلى مقربة منه جامعها وهو ملاصق لدارة الإمارة وباب جوفي يعرف بالباب السفلي...)" (البكري، 1992، صفحة 729).

أما من الناحية الفلكية فتقع إحداثياته بين خط طول 6°15'30" شرقا، ودائرة عرض 36°27'06" شمالا. (انظر الخريطة رقم01)

الخريطة رقم 01: موقع مسجد سيدي غانم.



Google earthبتصرف الباحثة

أسس هذا المسجد على يد الفاتح أبي المهاجر دينار سنة 60ه/680م. وقد ذكره أبو المحاسن الثغري البردي في كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: " ...ثم افتتح أبو المهاجر المذكور ميلة، وكانت إقامته بها في هذا الغزو نحوا من سنتين.." (يوسف، 1966، صفحة 192)، وأشار خليفة بن خياط في كتابه تاريخ الخليفة الخياط: "...وانتهى المهاجر إلى عيون أبي المهاجر وافتتح ميلة وكانت إقامته في هذه الغزاة نحوا من سنتين" (خياط، 1977، صفحة 226)يتبين لنا أن أبا المهاجر دينار فتح مدينة ميلة وإستقر بها لمدة سنتين، وشيد بها مسجدا ودارا للإمارة.

وقد أصبحت مدينة ميلة عاصمة الولاية المغربية لمدة سنتين، تحت قيادة أبي المهاجر دينار وصارت مركزا لنشر تعاليم الدين الإسلامي، فقام ببعث السرايا والحملات العسكرية للجهاد، ففتح مدينة ميلة ثم قسنطينة وتيديس وسطيف ثم مدن الهضاب العليا وبلاد الزاب وصولا إلى مدينة تلمسان (فيلالي، صفحة 70).

وفي عهد الولاة أي الفترة التي عقبت الفتح الإسلامي لبلاد المغرب حتى قيام الدويلات المستقلة في المغرب (أحمد، 2010، صفحة 121)، في هذه الفترة كانت ميلة مرتبطة بولاية طبنة، التي كانت عاصمة لإقليم الزاب، وأصبحت ميلة مركزا إداريا وعسكريا، وخلال حكم عبد الرحمن بن حبيب والي إفريقية 131ه/745م، لعبت دورا كبيرا في مراقبة تحركات القبائل المحيطة بميلة، وفي نهاية القرن 8م أصبحت ميلة تحت حكم مالك بن منذر الكلبي. (سمير، 2015، صفحة 27)

في فترة الحكم الأغلبي فقدت مدينة ميلة أهميتها السياسية والعسكرية، وأصبحت في ظل حكمهم جزءا من إقليم الزاب (موسى، 1979، صفحة 146)، حيث دخل أبو عبيد الله الشيعي المدينة

واستقر بها مستغلا غياب الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد بن الأغلب الذي توجه لصقلية من أجل فتح حصن طرمين، ومن هنا نخلص إلى أن ميلة أول مدينة أغلبية سقطت على يد الفاطميين (الجيلالي، 1965، صفحة 266).

ثم انتقل الحكم للزيرين، وذكر البكري عن هذه الفترة أن سكان ميلة قاموا بثورة ضد الحاكم المنصور بن أبي الفتوح (سنة 378ه/988م)، وامتنعوا عن دفع الضرائب نظرا لضعف ولائهم لأنهم كانوا يرون أن الكتامين أحق بالحكم من الزيرين لأنهم ساهموا في بناء الدولة الفاطمية (البكري، 1992، صفحة 245)، فزحف إليهم المنصور بن أبي الفتوح بجيش كبير أرعب أهل كتامة ولكنه أوقف الزحف، وأمرهم بتهجير الأهالي وطردهم إلى باغاي (قرب مدينة خنشلة حاليا) مع هدم سورها (الطمار، 2010، الصفحات 57-56).

خلال فترة حكم الأغالبة والزيرين لم نجد معطيات حول المسجد إن كان يشغل وظيفته الأصلية كمسجد جامع ويحمل نفس الخصائص المعمارية التي كان عليها، أو طرأت عليه تغييرات وظيفية ومعمارية.

وفي القرن 5ه/11م، استعادت مدينة ميلة نشاطها في أثناء حكم الحماديين، فتطورت فيها العمارة وانتعشت التجارة والزراعة أيضا (خلدون، 1992، الصفحات 490-491).

أما في الفترة الموحدية قام عبد المؤمن بن علي (524-558ه/1130-1163م) بفرض نفوذه على المغرب الأوسط حيث تمكن من الاستيلاء على مدينتي سطيف وميلة، وقد ظلت مدينة ميلة تخضع لحكم الموحدين أكثر من سبع سنوات (بحاز، 2017، الصفحات 44-45).

وخلال الحكم العثماني، كانت مدينة ميلة تابعة لبايلك الشرق وتحت سلطة داي قسنطينة (العنتري، 1991، صفحة 255)، حيث قام العثمانيون بإصلاح مساجدها وزواياها كالزاوية الرحمانية، والقصبة وأسوارها، وتميزت عمارتها في هذه الفترة بالمزج بين الطابع الإسلامي والتركي (ميلة، 2022، صفحة 06).

إحتل الاستعمار الفرنسي مدينة ميلة في 04 جويلية 1837 (وفاء، 2008، صفحة 08)، وبعد سنة (1848) قاموا بهدم منارة المسجد واستعمال حجارتها لبناء كنيسة ميلة الحديثة التي تحولت بعد الاستقلال إلى مسجد (بوزير، 2016، صفحة 23)، وخلال الفترة الاستعمارية فقد مسجد سيدي غانم وظيفته الأصلية وحول إلى مستشفى وثكنة عسكرية، مع إضافة بعض العناصر المعمارية منها: السقف، والطابق العلوي... إلخ.

2- معالم وآثار التعاقب الحضاري بموقع المسجد

تعد مدينة ميلة من المدن ذات الحضور التاريخي البارز، إذ ساهم موقعها الجغرافي المحصن طبيعيا في جعلها نقطة جذب للحضارات المتعاقبة منذ العصور القديمة، مرورا بالعهد الإسلامي، وصولا إلى فترة الاحتلال الفرنسي، وقد انعكس هذا التعاقب الحضاري على طابعها العمراني، مما أضفى عليها تنوعا في منشآتها، لا يزال جزء كبير منها قائما إلى يومنا هذا، ومن أبرزها مسجد

سيدي غانم. في هذا العنصر سنسلط الضوء على أهم معالم هذا الإرث التاريخي من خلال دراسة المخلفات المعمارية لكل فترة زمنية.

2-1- آثار ومخلفات الفترة الرومانية

شـــهدت مدينة ميلة ازدهارا كبيرا خلال الفترة الرومانية، حيث كانت جزءا لا يتجزأ من الإقليم السيرتي، وقد خلف الرومان إرثا معماريا غنيا يشمل مسارح فخمة، وحمامات عامة، ومعابد، وأسوارا تحيط بالمدينة، وقنوات مائية. وقد أثرت هذه المنشآت بشكل كبير على تخطيط المدينة وتنظيمها، ولا يزال أثر الحضارة الرومانية واضحا في العديد من المباني، بما في ذلك مسجد سيدي غانم، حيث تم إعادة اســتخدام العديد من الحجارة والأعمدة الرومانية في بناء المســجد، مما يمثل تداخلا فريدا بين الحضارتين الرومانية والإسلامية وهذا ما سنتطرق له بالتفصيل في العنصر الموالي.

الحجارة الكبيرة المصــقولة: هي عبارة عن حجارة كبيرة تم بناؤها بتقنية النظام الكبير (Opus quadratum) حيث تم وضــع الحجارة فوق بعضــها بعض دون اســتخدام مادة رابطة، وتعتمد هذه الطريقة في البناء على الضــغط الميكانيكي (التراص). حيث تتراوح أحجامها ما بين: طول:77ســم، العرض:58 سم، سمك:48 سم، استخدمت في بناء الجدران الخارجية للكنيسة ثم أعيد استخدامها في بناء المسجد في فترة الفتوحات الإسلامية، ولاحظنا استعمالها في الجدار الذي وجد فيه المحراب القديم الذي عثر عليه في أثناء عمليات الإسبار. ولازالت تحافظ على شكلها الأصلي ولم تتأثر بشكل كبير بالعوامل المحيطة بها. (انظر الصورة رقم01)

الصور رقم 01: الحجارة الرومانية الكبيرة.



من إنجاز الباحثة

الأعمدة: تضــم قاعة الصــلاة 44 عمودا تتفاوت في الحجم والشــكل، إذ تنقســم إلى أعمدة أسطوانية يبلغ عددها 15 وأخرى مربعة، إضافة إلى الأعمدة النصف دائرية المدمجة بالجدار الغربي، تعود غالبية هذه الأعمدة إلى الفترة الرومانية، حيث أعيد توظيفها ضمن الهيكل المعماري للمسجد،

وقد صـــنعت في معظمها من الحجر الكلســـي، في حين بُني بعضـــها الآخر باســـتخدام الآجر الأحمر والبني.

ومن الناحية الإنشـــائية يظهر أن بعض الأعمدة لا تتبع المعايير النمطية للأعمدة الإســـلامية، حيث وضعت بأسلوب مركب، ما يشير إلى استخدام قطع معمارية من منشآت سابقة، من بينها: أنصاب جنائزية وألواح تحمل كتابات تدشـينية، وهي ظاهرة شـائعة في عمائر الفترات الإسـلامية المبكرة التي اعتمدت على إعادة استخدام المواد.

تتموضـــع الأعمدة على قواعد مربعة وأخرى دائرية، وقد تعرض بعضـــها لانزلاق عن محوره الأصـلي، وذلك راجع للأسـبار الأثرية التي أقيمت في المسـجد والتي أدت إلى اختلال توازنها، إضـافة إلى تأثير الزلازل لا سيما زلزال عام 2019، الذي تسبب في إزاحة أحد الأعمدة بمقدار 15 سم، مخلفا شقوقا واضحة على مستوى قاعدته، وهو العمود الواقع في البلاطة العمودية على المحراب، تحديدًا في صف البائكة الرابعة إلى يساره.

حيث لاحظنا تدهورا كبيرا في حالة حفظ الأعمدة، وهذا راجع لقلة الصـيانة الدورية للمسـجد، إذ أن الرطوبة فيه مرتفعة جدا، إضـافة إلى وجود شـقوق وشـروخ بارزة على مسـتوى الأعمدة. وكما أدى زلزال 2019 إلى تحرك العمود ب 15ســم حيث أحدث شــقوقا بالقاعدة، ويقع هذا العمود في البلاطة العمودية على المحراب في صف البائكة الرابعة وبالضبط في يساره. (أنظر اللوحة رقم 01)

ويعلو الأعمدة تيجان متنوعة الطرز، يرجح أنها تنتمي إلى الفترات الرومانية والبيزنطية، حيث نجد التاج الكورنثي بنوعيه البســـيط والمركب إضـــافة إلى التيجان الأيونية والدورية، مما يعكس التنوع الأسلوبي الناتج عن إعادة التوظيف.

أما من حيث حالة الحفظ فقد لوحظ تدهور ملحوظ في بنية الأعمدة، نتيجة لغياب الصـــيانة الدورية وارتفاع نسـبة الرطوبة داخل المسـجد، مما أدى إلى انتشـار الشـقوق والتصـدعات، خاصـة في بعض الأعمدة الحاملة للبائكات.

اللوحة رقم01: تبين تحرك العمود عند مكانه بسبب زلزال 2019



من إنجاز الباحثة

2-2-آثار ومخلفات الفترة الإسلامية

شهدت مدينة ميلة تحولا جذريا مع الفتح الإسلامي على يد أبي المهاجر دينار، الذي أسس بها مسجدا ودارا للإمارة، لتتحول بذلك من مدينة رومانية إلى مركز إشعاع إسلامي. ويعتبر مسجد ميلة من أقدم المساجد في الجزائر، حيث كان له دور محوري في نشر الإسلام بالمنطقة، ولا تزال هذه المنشأة تحافظ على خصائصها المعمارية وهذا ما سنفصل فيه في هذا العنصر.

الأقواس: بلغ عددها في مسجد سيدي غانم تسعة وثلاثين قوسا، وقد تنوعت أشكالها ما بين نصف الدائري والمحدب، كما أنها تميزت بالبساطة وخلوها من الزخرفة، واستعمل في بنائها مادة الأجر الذي ينطلق من تاج العمود مشكلا قاعدته لتلتقي عند المنتصف على شكل نصف دائري أو محدب (انظر الصورة رقم02)، وقد لوحظ تأثير واضح للعوامل البيولوجية على هذه الأقواس، حيث أصبحت موطنا لتعشيش الحمام، مما أدى إلى تراكم الفضلات عليها بشكل ملحوظ، وهذه الظاهرة لم تؤثر فقط على المظهر العام للمسجد، بل ساهمت أيضا في تآكل بعض عناصره المعمارية بفعل الأحماض الموجودة في فضلات الطيور، الأمر الذي يستدعي اتخاذ إجراءات للحفاظ على المسجد من عوامل التلف التي باتت تهدده.

الصورة رقم 02: أقواس بيت الصلاة.



من إنجاز الباحثة

-المحراب : يتوسط المحراب الجدار الجنوبي

لقاعة الصلاة بدل أن يكون في اتجاه القبلة أي في الجدار الجنوبي الشرقي حسب الموقع الفلكي لشمال إفريقيا بالنسبة لمكة المكرمة، هذه الوضعية غير مألوفة في العمارة الدينية الإسلامية في الجزائر، حيث جرت العادة أن يُبنى المحراب في الاتجاه الصحيح نحو القبلة، ومع ذلك، نجد لها بعض الأمثلة، كما هو الحال في المسجد الكبير بتلمسان الذي يعود إلى العصر المرابطي،

مما يشـــير إلى احتمالية تأثر هذا الطراز المعماري بأنماط أخرى مثل: تخطيط الجامع الأموي في دمشق الذي اتبع نهجا مشابها.

وخلال المعاينة الميدانية تبين أن المحراب مغمور كليا بالتراب، وهو ما يمكن تفسـيره بالتعاقب الحضاري الذي شهده المسجد عبر الزمن، حيث مرت عليه فترات شهدت توسعات وتعديلات معمارية ربما أدت إلى تراكم طبقات من الردم والطمس الجزئي لبعض معالمه الأصـلية. (أنظر الصـورة رقم03)

الصورة رقم 03: محراب مسجد سيدي غانم.



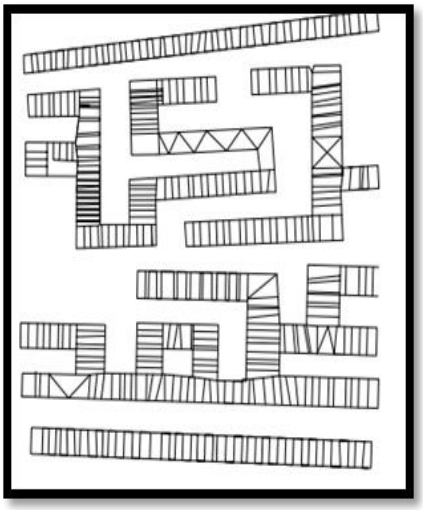
من إنجاز الباحثة

-المدخل الرئيسي للمسجد وزخرفته الكتابية: وهو أحد العناصر التي يرجح أنها أضيفت خلال أعمال توسعته في إحدى الفترات التاريخية، حيث يبرز بطابعه البسيط والمميز بزخرفته الكتابية التي زينت جانبيه من اليمين واليسـار. وقد تم تنفيذ هذه الزخرفة باسـتخدام الخط الكوفي المربع، وهو أحد الأسـاليب الخطية الهندسـية التي تعكس الطابع المعماري الإسـلامي. كما اسـتخدمت مادة الآجر في كتابة النصوص. وقد تعرض جزء كبير من هذه الكتابات للتخريب، ولم يتبق منها سوى عبارة **"بركة محمد"**. (أنظر الصورة رقم04-05).

الصورة رقم04: الزخرفة الكتابية بالخط الكوفي المربع (بركة محمد).



الصورة رقم05: تفريغ الزخرفة للكتابية المجسدة بواسطة الأجر.



من إنجاز الباحثة

-المئذنة: لم يبق منها أي أثر، وقد ذكر بعض المؤرخين أنها كانت تحتوي على 365 درجا حسب عدد أيام السنة، وبلغ ارتفاعها 62 مترا، إلا أن الاحتلال الفرنسي قام بهدمها واستعمل حجارتها لبناء الكنيسة وسط مدينة ميلة ،وبعد الاستقلال حولت إلى مسجد (بوزير، 2016، صفحة 35)، ولم نعثر على أي مصادر تاريخية تبين تاريخ أو مكان المئذنة، ما عدا لوحة فنية للباحث الأثري الفرنسي (دولمار)، التي توضح لنا أن المئذنة وجدت في الجهة الشمالية الشرقية للمسجد (Delamare, p. 117). (أنظر الصورة رقم 06)

الصورة رقم06: مئذنة مسجد سيدي غانم.



(Delamare, p117)

2-3-آثار ومخلفات الفترة العثمانية

تميزت الفترة العثمانية بكونها إحدى أهم المراحل التاريخية التي مرت بها مدينة ميلة، حيث شهدت اهتماما خاصا بترميم المنشآت الدينية لا سيما المساجد والزوايا مثل: الزاوية الرحمانية التي لعبت دورا بارزا في نشر التعليم الديني. كما أولى العثمانيون عناية خاصة بالقصبة، حيث عملوا على تعزيز تحصيناتها وتجديد مجاري المياه والسدود، مما يعكس حرصهم على تحسين البنية التحتية للمدينة وضمان استمرارية وظائفها الحيوية.

وقد تميز الطابع المعماري في هذه الفترة بمزج العمارة الإسلامية التقليدية مع التأثيرات العثمانية، وهو ما تجلى في أساليب البناء والزخرفة المستخدمة في العديد من المدن العثمانية. وبالرغم من الأهمية التي حظيت بها هذه الحقبة، لم نكشف في أثناء المعاينة الميدانية للمسجد عن أي عناصر معمارية أو مخلفات أثرية يمكن أن تعود للفترة العثمانية، مما قد يشير إلى أن أعمال التجديد التي شهدها المسجد في فترات لاحقة قد طمست أو استبدلت هذه الإضافات.

2-4-آثار ومخلفات فترة الاحتلال الفرنسي

تعد مدينة ميلة القديمة من أبرز المواقع التاريخية في الجزائر، حيث كانت مركزا لعمليات الفتح الإسلامي مما منحها أهمية استراتيجية وثقافية كبيرة، ومع دخول المستعمر الفرنسي إلى الجزائر عمل على طمس وتشويه كل المعالم الأثرية خاصة المعالم الدينية، وقد تجلى ذلك بوضوح في مسجد سيدي غانم، الذي شهد تغييرات وإضافات أثرت على قدسيته وغيرت وظيفته الأصلية، في هذا السياق سنسلط الضوء بالتفصيل على التعديلات التي طرأت على المسجد خلال فترة الاحتلال الفرنسي.

الباب الموجود في الجدار الغربي: يقع في الجهة الغربية للمسجد ويعود تاريخه للفترة الاستعمارية، حيث يؤدي للطابق الأول الذي أستحدث فوق بيت الصلاة، يعاني الباب من تدهور كبير إذ فقد طبقة الورنيش التي كانت تحمي سطحه الخارجي مما جعله عرضة لعوامل التلف البيولوجية مثل: انتشار الفطريات والبكتيريا، إلى جانب تأثير العوامل الجوية: كالرطوبة، والتغيرات الحرارية، والتعرض المستمر للضوء. وقد خضع لترميمات أثرت على طابعه الأصلي، وحاليا هو مدعم بألواح خشبية وذلك بسبب الحالة التي أصبح عليها. (انظر الصورة رقم07)

الصورة رقم07: الجهة الغربية للمسجد.



من إنجاز الباحثة

الطابق الأول: تمت إضـافة الطابق الأول خلال الفترة الاسـتعمارية، وهو يتكون من مجموعة من الغرف التي كانت تسـتخدم لأغراض مختلفة، حيث شـغل جزء منه كمقر لإدارة الثكنة العسـكرية بينما استخدم الجزء الآخر كمستشفى.

ويعاني هذا الطابق من تدهور شديد، إذ تعرض لتخريب كلي جعله في وضعية هشة للغاية، حيث فقدت العديد من جدرانه وأجزائه الداخلية، وتشكل حالته الراهنة خطرا على باقي أجزاء المبنى، مما يستدعي تدخلا عاجلا لحفظه أو اتخاذ الإجراءات اللازمة لمنع انهياره.

التسقيف: يعود هذا العنصر المعماري إلى الفترة الاستعمارية، وهو مشيد بأسلوب الجملوني، حيث صنع من الخشب والقرميد. أما حالته الحالية فتعد متدهورة بسبب العوامل البيولوجية، وخاصة تأثير الطيور والحمام، التي تسببت في أضرار واضحة على سقف المسجد. (انظر الصورة رقم08)

الصورة رقم08: تسقيف المسجد الذي أضيف في الفترة الاستعمارية.

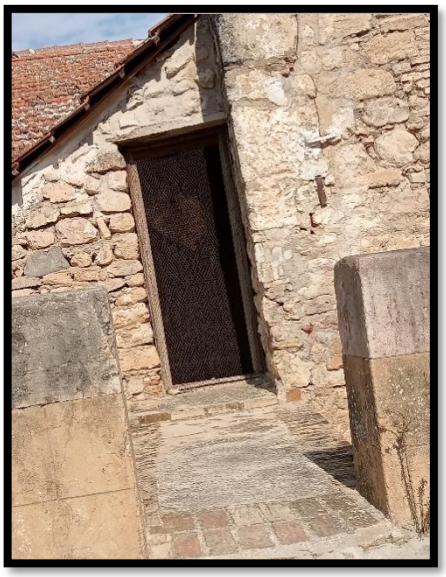


من إنجاز الباحثة

النوافذ: أنشـــئت النوافذ خلال الفترة الاســـتعمارية حيث يتوزع عددها على مختلف جدران المســـجد، إذ نجد خمس نوافذ في الجدار الشـــمالي، وســـبعا في الجدار الغربي، وتســـعا في الجدار الجنوبي. تتميز هذه النوافذ بتنوع أحجامها وأشـــكالها، وقد شـــيدت باســـتخدام مواد البناء التقليدية كالأجر والخشب، وسيجت بالشبابيك الحديدية، أما بالنسبة لحالة حفظه فهي جد متدهورة، حيث أدى الصدأ الذي أصاب الشبابيك الحديدية إلى ظهور انكسارات وتشققات في الأجر المحيط بها، مما أثر على متانتها، كما ساهمت العوامل البيولوجية مثل: انتشار الفطريات على مستوى الأجزاء الخشبية مما زاد من هشاشتها وسرع من تآكلها. (أنظر اللوحة رقم 02)

اللوحة رقم02: نوافذ المسجد التي أضيفت في الفترة الاستعمارية.

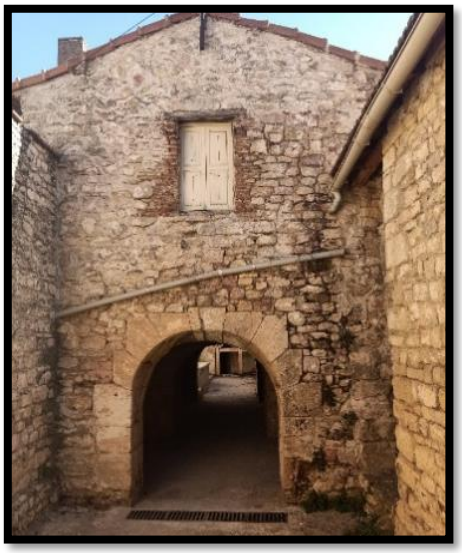




من إنجاز الباحثة

مصلحة حفظ الجثث: تعود للفترة الاستعمارية، وهي عبارة عن رواق ملاصق للجدار الشمالي للمسجد على شكل سباط سقفه جملوني به صحن تطل عليه النوافذ التي تقع في الجهة الشمالية للمسجد، يبعد على المدخل الشمالي ب حوالي 6.04 م به أربع أقواس نصف دائرية ومتقابلة، أما العقدان الأوســـطان فيحملان درجا يؤدي إلى الطابق الأول يتم الولوج إليه من خلال مدخل ذي باب حديدي يطل على الشارع من الجهة الشمالية للمسجد، أما بالنسبة لحالة حفظه فهي سيئة إذ يظهر عليها التأثر الشـــديد بالرطوبة، ما أدى إلى تآكل أجزاء كبيرة من هيكلها خاصـــة في مناطق التقاء الجدار بالسقف، إضافة إلى ذلك رصدنا آثارا للحروق على مستوى السقف والجدران. (انظر اللوحة رقم 03)

اللوحة رقم03: تبين التوسعة التي أضيفت في فترة الاستعمار الفرنسي.





من إنجاز الباحثة

غرف الراهبات: تقع غرف الراهبات في الجهة الشـمالية الشـرقية من المسـجد، وتتكون من طابقين حيث يشـغل الطابق الأرضـي مجموعة من الغرف، بينما يطل الطابق الأول على صـحن المسجد. شيدت هذه الغرف خلال الفترة الاستعمارية باستخدام الإسمنت مما يعكس الطابع الوظيفي والبسـيط للبناء، إذ كانت مخصـصـة لإقامة الراهبات اللواتي كنّ يعملن ضـمن المنشـآت التابعة للكنيسة أو الإدارة الاستعمارية آنذاك.

تعاني هذه الغرف من حالة متدهورة نتيجة الإهمال، حيث تغطيها طبقات كثيفة من الغبار، وتنتشـر فيها النفايات التي تراكمت بفعل غياب الصـيانة الدورية. إضـافة إلى ذلك، تظهر آثار حريق على الجدران والأسقف.

3- تحليل المعطيات

يحتوي على مجموعة من الأبواب منها:

3-1- أسباب ودوافع التعاقب الذي عرفه موقع المسجد

إن الموقع المميز لمدينة ميلة جعلها تشـهد تعاقبا حضـاريا مميزا، منذ فترات قديمة مرورا بالعهد الإسلامي و صولا إلى مرحلة الاحتلال الفرنسي، وهذا ما خلق تنوعا عمرانيا لا يزال جزء كبير منه قائما إلى يومنا هذا، كما تجدر الإشارة إلى أن هذه المدينة، وعلى الرغم من مرورها بالعديد من الفترات والتعاقبات المذكورة سابقا، إلا أن الطابع الإسلامي هو الغالب عليها، والذي يظهر متجذرا من خلال سماتها العمرانية والعديد من ملامح معالمها كمسجد سيدي غانم الذي يعد أول مسجد بني في الجزائر.

وبالرغم من قلة الأدلة المادية الكافية لتحديد تاريخ بناء مسجد سيدي غانم بدقة، إلا أنه من المرجح أن تكون نواته الأولى قد وضعت في بداية الفتح الإسلامي لمدينة ميلة مع الفاتح أبي المهاجر دينار، وهذا راجع لسببين:

أولا: أهمية عمارة المساجد في حياة المسلمين، فقد اهتم الفاتحون أينما حطوا رحالهم ببناء المسجد قبل التفكير في بناء أي منشأة أخرى، مثلما فعل الفاتح عقبة بن نافع عندما فتح القيروان وبنى بها مسجدا، ولذلك فأول ما فعله أبو المهاجر دينار بعد دخوله للمدينة هو بناء مسجد فيها ودار إمارة واستقر بها مدة سنتين، ثم اتخذها مركزا لانطلاق حملاته العسكرية حتى بلغ تلمسان. (مؤنس، د.ت، صفحة 164)

ثانيا: المخلفات المادية التي تبين أقدمية المسجد، حيث تقع الأساسات على أنقاض كنيسة أو معبد روماني، وكذلك وجود المحراب في الجدار الجنوبي للمسجد يبين أقدمية تخطيطه، مثل المساجد المشرقية الأولى كالمسجد الأموي بدمشق هو الآخر بني على أنقاض كنيسة ومحرابه موجه أيضا للجنوب.

3-2- نتائج وانعكاسات التراكب المعماري على الخصائص المعمارية والفنية لمنشأة مسجد سيدي غانم

إن المسجد الأصلي الذي بناه أبو المهاجر دينار، لم يكن بهذا الحجم والمساحة الكبيرة التي يوجد عليها اليوم، لأنه عندما فتح ميلة كان عدد المسلمين قليلا، حيث كان معظمهم من الفاتحين والقليل من السكان الذين دخلوا الإسلام، لذلك نتصور أن المسجد الأصلي الذي بني في ذلك العهد لا يتعدى حجم المصلى الصغير، وهو موجود تحت ردم المسجد الحالي ولاحظنا في عملنا الميداني وجود جدران تحت الأعمدة، ولقد وضحناها في مخططنا باللون الأحمر.

أما بالنسبة للإضافات التي حدثت في المسجد خلال الفترات الإسلامية، تكون قد حدثت بسبب زيادة عدد المسلمين ودخول عدد كبير من السكان في الإسلام داخل المدينة، مما يجعل توسعة المسجد أمرا ضروريا، ولا يمكننا الجزم أن المسجد قد تعرض للتخريب أو الحرق إثر الحملة التي قام بها المنصور بن أبي الفتوح على ميلة وهذا ما ذكرناه سابقا، والسؤال المطروح: هل المسجد تعرض للتخريب في أثناء تلك الحملة شأنه شأن المدينة ككل، أم بعد أن هجر السكان منها؟

ومن هنا يمكننا القول إن فرضية أعمال التوسعة التي مست المسجد ترجع للفترة الحمادية، وهذا ما لاحظناه جليا في الأعمدة والتيجان التي تتقارب كثيرا مع تلك التي وجدت في الجامع الكبير بقسنطينة.

وهذا لا ينفي أن المسجد لم يتعرض لأعمال التجديد أو الإضافات في الفترات اللاحقة سواء داخل أو خارج المسجد، ومن بين العناصر المستحدثة أيضا المدخل الرئيسي للمسجد، وزخرفته الكتابية التي تزين واجهته يمينا ويسارا، وقد كتبت بالخط الكوفي المربع إذ تعرض جزء كبير منها للضياع ولم يبق إلا (**بركة محمد**) وقد استعملت بالأسلوب نفسه في الفترة الموحدية.

أما في الفترة الفرنسية فقد استغله المستعمر كإسطبل بالنسبة للطابق الأرضي، وأضاف فيه طابقا خصص لإدارة الثكنة العسكرية، ذلك راجع للمكان الذي يقع فيه المسجد وهو جد محصن من

ناحية، ومن ناحية أخرى الحجم الكبير للمسجد يسمح للمستعمر بالقيام بتعديلات كثيرة عليه، حيث قاموا بنزع السقف وأضافوا جزءا كبيرا من التراب المدكوك وذلك لإنشاء سقف جديد وهو الموجود حاليا، وبالتالي لا يمكننا معرفة الصورة الأصلية لسقف المسجد.

3-3- القيم الأثرية والحضارية المميزة للمنشأة

يُعتبر مسجد أبي المهاجر دينار أقدم مسجد في الجزائر، الأمر الذي جعله يتميز بالعديد من القيم الأثرية والحضارية التي ترجع إلى تاريخه العريق ومكانته في تاريخ الإسلام بالمنطقة. أما من الناحية الأثرية فهو يعد ثاني أقدم مسجد بني في المغرب الإسلامي بعد مسجد عقبة بن نافع، كمثال حي لعمارة المساجد سواء من ناحية تخطيطه أو خصائصه المعمارية التي أثرت طريقة بنائه على العديد من المعالم الدينية بالمنطقة، وهذا ما جعله مصدرا مهما للدراسة والبحث.

أما من الناحية الحضارية، فقد مر المسجد على أغلب الفترات التاريخية التي شهدها المغرب الا سلامي منذ الفتوحات إلى يومنا هذا، ومن جهة أخرى يقوم الإ سلام على مبدأ احترام الأديان الأمر الذي جعل أبا المهاجر دينار يبني الجامع بجوار الكنيسة وليس على أنقاضها، وهذا ما أثبتته الأ سبار الأثرية التي أقيمت في المسجد.

3-4- المعايير العامة لإعادة تثمين ورد الاعتبار للمنشأة الأثرية

إن عملية الحفاظ على المعالم الأثرية لا تنتهي بمجرد الانتهاء من عمليات الصيانة والترميم، بل تتعدى ذلك إلى مراحل أخرى مكملة لهذه المرحلة، لأنه لا فائدة من الترميم والصيانة إن لم يكن هناك تثمين ورد الاعتبار للمعالم الأثرية، وحتى يتسنى لنا الاستفادة منها يجب أن يصبح مصدرا للتنمية الاقتصادية والاجتماعية للدولة، كما أن عملية التأهيل تساعد على جذب السياح للتعرف على هذا الموروث الحضاري.

أ) كيفية تثمين ورد الاعتبار لمسجد سيدي غانم

من أجل تحقيق التثمين ورد الاعتبار للمسجد لابد لنا من تطبيق مجموعة من الإجراءات وهي كالتالي:

- إجراءات تخص المسجد:

- التسريع في عمليات الصيانة والترميم، لأن المسجد أصبح عرضة لعوامل التلف المختلفة التي أدت إلى اندثار جزء كبير منه، وهذه العوامل التي باتت تعرقل عمليات التثمين ورد الاعتبار للمنشأة.
- إبراز القيمة الأثرية والتاريخية والحضارية للمسجد، كونه أول مسجد بني في الجزائر.
- تفعيل دور جمعيات المجتمع المدني من أجل إبراز أهمية التراث والدعوة لصيانته وبالتالي توعية المواطنين لتفعيل خطط التثمين ورد الاعتبار.
- نشر الوعي للزوار والمواطنين بضرورة الحفاظ على هذا الموروث الثقافي وتثمينه لأنه يعدّ موردا اقتصاديا للدولة.
- تسهيل إجراء الأعمال الميدانية للباحثين في مجال الآثار، وكذا تزويده بالمعلومات التي تيسر لهم أعمالهم.

- نشر أكبر عدد من الدراسات التي تخص المسجد، نظرا لندرة المعلومات المتعلقة به.
- كذلك يجب فتح حفريات أو مواصلة الأسبار التي أقيمت داخل بيت الصلاة وذلك للإجابة على أكبر عدد من الإشكاليات التي تتبادر إلى أذهننا وتسهيل العمل للباحثين مستقبلا.
- استغلال الأنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي من أجل توعية المجتمع بضرورة الحفاظ على هذه المنشأة.
- وضع لافتات تعريفية ولوحات شارحة لمسجد سيدي غانم تحتوي على تاريخه ومؤسسه وكذا وصف بسيط له مع وضع صور تشوق الزائر لاكتشاف هذا الموروث الذي تعاقبت عليه الحضارات المختلفة.
- إيداع كتب ومطويات عند المدخل تحتوي على معلومات حول المسجد وتكون مزودة بصور ومخططات لتسهيل زيارة السياح للموقع.
- القيام بحملات توعية وزيارات ميدانية لموقع المسجد من طرف الباحثين والطلبة والتلاميذ والأطفال وذلك لرفع المستوى المعرفي لديهم، وضرورة الحفاظ على هذه المواقع وتثمينها للأجيال اللاحقة.
- توفير بيئة مواتية لاستقبال السياح وذلك عن طريق تجهيز وإتاحة ظروف ووسائل الراحة للزوار، كوضع الكراسي من أجل الجلوس، وتوفير الحاويات لرمي الأوساخ من أجل المحافظة على نظافة المكان، وتزويد المكان بمراحيض عامة وأماكن لركن السيارات.
- إقامة متحف خاص بالمنطقة يعرض مختلف التحف التي تعود للحضارات المتعاقبة على ميلة بعامة وعلى المسجد بخاصة.
- الإجراءات المتعلقة بالمحيط الخارجي للمسجد:
- أولا يجب إعادة تهيئة الطريق المؤدي للساحة المتحفية، وتعبيد المحيط الخارجي للمسجد.
- دمج المسجد في الحياة اليومية وذلك من خلال القيام بمعارض ومهرجانات في الساحة المتحفية لتوعية الناس بضرورة الحفاظ وتثمين هذه الممتلكات الثقافية.
- إنشاء مجمع سياحي بالمنطقة يوفر مجموعة من الخدمات كالمطاعم والمقاهي، حيث يجد الزائر راحته في أثناء زيارته.
- تزويد المنطقة بمحلات تجارية مخصصة لبيع الهدايا التذكارية كالمجسمات الصغيرة للمسجد، لأن هذه الحركة تساهم بشكل كبير في تثمين الموقع ورد الاعتبار له.
- توفير فنادق وأماكن للإيواء وهذا ما لاحظناه منعدما بجوار المدينة القديمة، حيث تعد هذه خطوة مهمة من خطوات التأهيل.

خاتمة

من خلال ما سبق نستنتج أنه على الرغم من عدم استكمال الحفريات داخل مسجد سيدي غانم، إلا أنه لعب دورا هاما في تطور عمارة المساجد في المغرب الإسلامي، سواء من حيث التخطيط أو من حيث استخدام مواد البناء، فقد جمع المسجد بين المواد الرومانية مثل: الحجارة الكبيرة

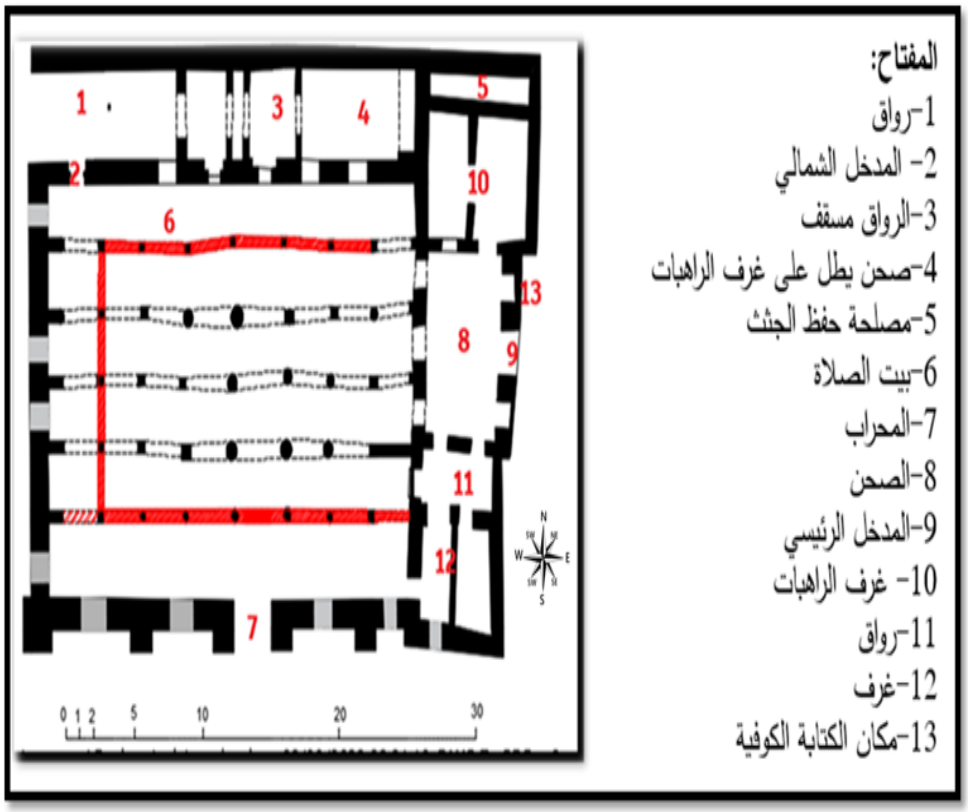
المصقولة، والأعمدة، والدعامات، والتيجان، وبين المواد الإسلامية مثل: الأجر والطوب. كما استوحى المسجد تأثيراته من العمارة المشرقية، لا سيما المسجد الأموي بدمشق، ومن المعمار والزخرفة المغاربية، نظرا للتعاقبات الحضارية التي شهدها منذ بنائه على يد أبي المهاجر دينار وحتى فترة الاستعمار الفرنسي، التي شهدت تحويله إلى إسطبل وإضافة طابق علوي لاستخدامه كإدارة للثكنة العسكرية ومستشفى، إضافة إلى هدم بعض معالمه مثل: المئذنة، واستحداث أجزاء أخرى: كالسقف.

كما يمكن ملاحظة بعض التأثيرات الفاطمية أو الزيرية والحمادية في بعض عناصره المعمارية مثل: الأقواس الموجودة بين بيت الصلاة والصحن، التي تشبه أقواس برج المهدية في تونس، فضلا عن الزخرفة الكتابية التي يمكن اعتبارها ذات تأثير موحدي أو ربما قد أنشأت في تلك الفترة.

وفي الأخير يمكننا القول إن حالة المسجد في الوقت راهن، آلت إلى التدهور وذلك بسبب عوامل التلف التي باتت تهدده وبشكل كبير أبرزها: العوامل الطبيعية والبيولوجية والبشرية، ولذلك وجب من السلطات المعنية التدخل في أقرب وقت للحفاظ على هذا الإرث الذي يعتبر جزءا مهما من التراث الثقافي والهوية الوطنية.

ملاحق

مخطط رقم01: مسجد سيدي غانم.



من إنجاز الباحثة

قائمة المراجع

أولا: المراجع باللغة العربية

1-ابن ثغري بردي أبي المحاسن يوسف. (1966). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (المجلد ج1). مصر، مصر: دار الكتب.

2-أبو عبيد اللّه البكري. (1992). المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب جزء من كتاب المسالك والممالك (المجلد ج2). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

3-الوكالة الوطنية للقطاعات المحفوظة ملحقة ميلة. (2022). ميلة موطن الحضارات والثقافات. ميلة، ميلة.

4-حسين مؤنس. (د.ت). فتح العرب المغرب. الإسكندرية: مكتبة الثقافة الدينية.

5-خليفة بن خياط. (1977). تاريخ خليفة بن خياط. (أكرم ضياء العمري، المترجمون) بيروت، لبنان: دار القلم.

6-زيطران سمير. (2015). زوايا منطقة ميلة في الفترة الإسلامية زاوية سيدي الشيخ الحسين، الرحمانية الحملاوية (نموذجا)دراسة أثرية تحليلية،. الجزائر، معهد الآثار، جامعة الجزائر02، الجزائر: مذكرة ماجستير في الآثار الإسلامية.

7-عبد الحكيم حسن إبراهيم سيد أحمد. (2010). "انتشار الإسلام في المغرب العربي في عصر الولاة العباسيين". مجلة الدراسات الانسانية، صفحة 121.

8-عبد الرحمن إبن خلدون. (1992). تاريخ إبن خلدون (المجلد 6).

9-عبد الرحمن بن محمد الجيلالي. (1965). تاريخ الجزائر العام (المجلد 1). الجزائر، الجزائر: دار مكتبة الحياة.

10-عبد العزيز فيلالي. (بلا تاريخ). مدينة ميلة (التطور التاريخي في العصر الإسلامي الوسيط). مجلة جامعة قسنطينة للعلوم الإنسانية، 04، صفحة 70.

11-عبد العزيز فيلالي، إبراهيم بحاز. (2017). مدينة ميلة في العصر الوسيط. الجزائر: دارالهدى.

12-عمار بن محمد بوزير. (2016). الاثار الاسلامية بالجزائر مسجد سيدي غانم -أنموذجا-. الجزائر، الجزائر: شبكة الألوكة.

13-فتحي وفاء. (2008). إعادة تهيئة المدينة القديمة لميلة. قسنطينة، كلية علوم الأرض والجغرافية والتهيئة العمرانية، الجزائر: جامعة منتوري .

14-لقبال موسى. (1979). دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس هجري الحادي عشر ميلادي. الجزائر، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

15-محمد الطمار. (2010). المغرب الأوسط في ظل صنهاجة. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

16-محمد صالح العنتري. (1991). فريدة منسية في حالة دخول الترك بلد قسنطينة وإستيلائهم على أوطانهم. الجزائر، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

ثانيا: المراجع باللغة الفرنسية

1-Delamare, A. H. (s.d.). Exploration scientifique de l'Algérie pendant les années 1840-1845 : planches. Paris : paris imprimerie nationale.